يعني أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص .. أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أي الذي يزهو في محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم في أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ١٢

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً . وقوله الحق :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله: ﴿ ما منعك ﴾ أي ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء بـ « لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفة . لذلك قال العلماء : إن « لا » هنا زائدة ، ومَنْ أحْسَن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هى فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعنى أنه امْتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنّه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى الرد على ربّه :

﴿ .. أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أزلاً أنّ إبليس قد امتنع باقتناع لا بقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكأن المسألة دارت فى ذهنه ليوجد حيثية لعدم السجود . ولا يصح فى عرفه الإبليسى أن يسجد الأعلى للأدنى ، فما دام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فكأن النار لها علو ، وهو فى ذلك مخطىء تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدى مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع فى النار .

إذن فالخيرية تتأتى فى الأمرين معا ما دام كل منهما يؤدى مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شىء فى الوجود حين يوضع فى منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضى أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذى جعله يؤدى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى متساوى المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله فى أمره ، وكأنه يخطِّىء الحق فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

والهبوط يستدعى الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التى وصفها الله بأنها عالية هى فى السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانياً ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ..(٤٨) ﴾

[سورة هود]

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون فى محضر الملائكة ؛ فقد كان فى محضر الملائكة ؛ لأنه الزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختارا أن يطيع أو أن يعصى ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون فى هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ .. (١٣) ﴾ [سورة الأعراف]

أى ما ينبغى لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الآمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذى أهله أن يكون فى العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون فى الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفى هذا هبوط لقيمة كلامه فى أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذى توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول ﷺ :

« إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم »[1] .

وهو ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهى المادة التى خُلق منها . وهى تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أى شىء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن : لا تعتقد أن عنصريتك هى التى أعطتك هذا التميز ، وإنما هى إرادة المُعَنْصر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه - سبحانه - يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوما لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه فى مجلس سليمان ، جعل الذى عنده علم من الكتاب ، يأتى بقوة أعلى من قوة « عفريت» من الجن . فالحق هو القائل :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ .. (٣٩) ﴾ [سورة النمل]

وهذا يدل على أن هناك أذكياء وأغبياء فى عالم الجن أيضاً . وجاء الذى عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن فى الزمن ، فقد قال هذا العفريت :

﴿ أَنَا ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [سورة النمل]

والمقام هو الفترة الزمنية التى قد يقعدها سليمان فى مجلسه ، فماذا قال الذى عنده علم من الكتاب - وهو إنسان - ؟

﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَـٰبِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [سورة النمل]

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى السلام ، وأبو داود فى السنة ، وابن ماجه فى الصوم ، ورواه أحمد ٣/ ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٣٧ .

كأنه سباق بعرش بلقيس قبل أن يأتيه سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كأن المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إننى أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ؛ لأنها إرادة من عَنْصَرَ العناصر .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ۝١٣ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغار هو الذل والهوان ؛ لأنه قَابَل الأمر باستكبار ، فلابد أن يجازى بالصَّغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهذيب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرنى ﴾ أمهلنى أى لا تمتنى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥ ﴾

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكي يشفى غليله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصغار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد فى أن يغرى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكأن إبليس فى هذا الطلب أراد أن يُنقذ من الموت وأن يبقى حيًا إلى يوم البعث الذى يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه فى كل وقت . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨ ﴾

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ ﴾

(سورة الزمر)

وكأن إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لابد أن يكون قبل النفخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الْغَي وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة مريم]

وحين نقرأ ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» ، واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضجعاً نائماً. وأريح الحالات أن يكون نائماً مضجعاً ؛ لأن الجسم فى هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : «مضجع قليلاً لترتاح» .

ولماذا اختار الشيطان أن يقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو فى حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . ⓹ ﴾

[سورة التوبة]

ولم يقل : «قفوا» حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراخى والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذى يحفظ لـه قوته ، ويبقى له انتباهه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ⓰ ﴾ .

ومادام الشيطان سيغوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون فى طريق الهداية . إنما من غوى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون فى الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى له الوسواس ، ويشككنى فى الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

لماذا ؟ . لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم فى العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التى لا تضبطها ؛ ويأتى إليك بمهام الأشياء فى وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التى لم تكن تتذكرها ، ويأتى لك بأعقد المسائل وأنت تصلى ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان فى مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو فى المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل في هذه الحال؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾

فمعنى ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ أى فالتجىء منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتغلغل فيك ، وفى دمك ، وفى خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بفزع والتجاء إليه - سبحانه - فإنه - جل شأنه - ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة : مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهرَ عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع منى مال فى أرض كنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلنى عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بنى ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنى احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصليا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلا : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتى ليُخبرك ، فهلاّ أتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد : وكيف يقسم ، لأنه فى آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن يأتى بالقسم الذى يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت الغالب الذى لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذى يريده الله مهديًّا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خلقه فى معْركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ، و ﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشيء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دار أخرى سيُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنّه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه ـ سبحانه ـ عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جل شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شيء سهل وهينّ وآخر صعب وشاق ويبلغنا ـ سبحانه ـ بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)